أو لا تصـــل ، الى مرحلة تنفيذها للشعار المشترك بين جميع تنظيماتها ، شعار حرب التحرير الشعبية . ان الحرب ، كما يعرفها ماوتسي تونغ ، هي «سياسة دامية» (١) ولذلك فان اهمـــال التعبئة السياسية بالنسبة لمن يريد النصر يجعله بمثابة « من يقصد الجنوب وهو يســـوق عربته شمالاً » (٢) . ومن هنا يرى « هوشيه منه » أن « العسكري دون السياسي شجرة بلا جذور ، ليست عقيمة فقط ولكنها ضارة ايضاً » . ان هدف الحرب العادلة هو تحقيق السلام ، ويحدث ذلك عن طريق افناء العدو والمحافظة على الذات في آن واحد ، وهما مسألتـــان متناقضتان في جوهرهما ، وهنا بالذات تتدخل الستراتيجية والتكتيك لترجح كفة احداهما . وطالما ان هدف الحرب هو كذلك فمن الطبيعي أن تشتد ضراوتها كلما كانت القوة المعيقة للسلام الحقيقي أكثر شراسة وامكانيات . وتبرز هذه الظاهرة على الاخص في مراحل الركود ، التي كنا قد تحدثنـــا عنها سابقاً ، اذ أن هذه المراحل تطول أو تقصر بمقدار أهمية ورسوخ الاهداف التي يناضل من أجلها هذا الطرف أو ذاك . وهذه الموضوعة تضفي اهمية متزايدة على الجانب السياسي ، والتعبئة السياسية في الحرب .

ولكن قبل المضي في التفاصيل ، لا بد من الالمام بصورة عامة ومختصرة بالخصائص الموضوعية لطرفي المواجهة ، لأنه دون تحديد هذه الخصائص سيظل اي تقدم في التحليل هو بمثابـــة الرجم بالغيب .

أولاً : تتميز ساحة المواجهة الرئيسية ،اذا ما نظرنا اليها كصراع اسرائيلي فلسطيني ، بصغر الرقعة الجغرافية محل النزاع ، وتتأتى عن هذه الخصوصية نتائج عسكرية بالغة الاهمية . فصغر المساحة يهيء للقوة العسكرية الاسرائيلية القمعية قدرة على سرعة الحركة والمناورة والتغطية . ويحرم المقاومة الفلسطينية المسلحة من المرونة ومن الخطوط الواسعة التي تفترض حرب العصابات ضرورة المناورات الكبيرة والتحركات الحرة فوقها .

لقد اعتبر ماوتسي تونغ اتساع مساحة الصين مزية هائلة للقدرات الثورية العسكرية في حرب التحرير الطويلة الأمد التي خاضتها ضد الاحتلال الياباني ، ولا ريب ايضاً ان هذه الخصوصيـــة تنعكس بصورة أخرى ومشابهة الى حد ما في الفيتنام حيث تغطي الارض ظواهر طبيعية تعطي الثورة ثقلاً لمصلحتها .

ثانياً : تتميز ساحة المواجهة - ان نحن اعتبرناهـــا فلسطينية اسرائيلية - بوجود الاستعمار الاسكاني الصهيوني ، والذي حل محـــل جزء كبير من شعب طرد من أرضه وحول الى شعب من اللاجئين في منطقة تقع خارج أرضه الأصلية . في هذه الحالة يفقد المقاتـــل الثوري الفلسطيني مزية السمكة التي تسبح في بحر الجماهير . وفيما عدا الاراضي المحتلة بعد ١٩٦٧ فـــان المقاوم الفلسطيني يواجه في الواقع جمهوراً معادياً يشكل كل عنصر من عناصره « اداة انـــذار » على الاقل . لقد اعتمدت نظريات حروب التحرير الشعبية دائماً على ذلك التفـــوق العددي للشعب المقهور الذي يؤدي استنفاره الى الاخلال بتفوق العدو الحربي والتقني ، وتحويل هذا التفـــوق

(١) ماوتسي تونغ - المؤلفات المختارة (بكين) الجزء الثاني ص ٢١٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١٦ .

الكمي للجماهير الى تفوق نوعي ، ولكن في ساحة المواجهة الفلسطينية الاسرائيلية يكاد يكون الواقع الكمي في الطرفين متساوياً. وهذا الواقع - بهذه الصورة - يفقد المقاومة الفلسطينية عنصراً أساسياً من عناصر النصر في حروب التحرير الشعبية .

ثالثاً : بالاضافة لذلك ، ثمة خصوصية مهمة على طرفي المواجهـــة الآن . ففيما يتميز الجانب الاسرائيلي - حتى الآن - بالتمسك تمسكاً شديداً بالنظرية الهرتزلية التي تعرف الامة على « انهـــا مجموعة من البشر يوحدها وجود خطر مشترك ضدها » واجهها على الجانب الفلسطيني تشتت وتشرذم في الفصائل الوطنية ، بالاضافة للتشتت والتشرذم الجغرافيين في قسم كبـــير من الشعب الفلسطيني .

رابعاً : يختص الجانب الاسرائيلي بالتفوق التكنولوجي المدعـــوم بتأييد واسهام المعسكر الامبريالي برمته ، وجهد المؤسسة الصهيونية العالمية ، فيما تنتسب جماهير الشعب الفلسطيني الى العالم الثالث النامي ، بكل ما في هذه الكلمة من معاني التخلف ، ولكنه تخلف يضيف الى نفسه ظواهر طفيلية ، في كثير من الاحيان ، تعبر عن نفسها في تسلق الكثير من العناصر على قشور التقدم الاقتصادي والتقني النسبي الذي تنسخه البورجوازية العربية المرتبطة بمصالـــح الشركات والمؤسسات الامبريالية .

ان هذه الخصائص الرئيسية الراهنة في شكلها السلبي الذي يبدو واضحاً ، هي ذاتها الـــتي تفرض اصـــولاً استراتيجية لا غنى عنها يجب أن توضع حركة المقاومة الفلسطينية ضمن اطارهـــا .

ومن الضروري والعلمي تلخيص عنواني هذه الاستراتيجية الجديدة بشعارين أساسيين لقلب ميزان القوة لمصلحة المقاومة :

- الصفة القومية للمقاومة الفلسطينية ، في محتواها الطبقي الطليعي .
- شعار الجبهة الوطنية ، الفلسطينية والعربية .

لقد كانت النتائج السلبية التي حصلنا عليها من استعراض الخصائص الاربـع لميدان المواجهة تعود الى نقطة الرصد التي اخترناها افتراضاً ، والتي اعتبرت المعركة معركة فلسطينية اسرائيلية بحتة . والواقع أنـــه لا مفر من الوصول الى هذه النتائج السلبية اذا كانت الفرضية الأساسية هي فرضية خاطئة ، على ان هذه الخصائص السلبية تعود فتنقلب في مجموعها الى خصائص ايجابيـــة لمصلحة الثورة ومصلحة انتصارها ان جرى ايقاف القضية على رأسها بدلا من قدميها ، واعتبرت - اساساً - قضية الجماهير العربية ، في مواجهة الامبريالية والصهيونية وادواتها وكذلـــك حلفائها المباشرين او غير المباشرين .

ليس ثمة مخرج غير عربي ، شرط أن يعطى للمواجهة التاريخية الراهنة بعدها الطبقي ، فعند ذاك تتغير الصورة وتنهض في مقابل معسكر العدو الهائل الضخامة القوى المؤهلة لتحطيمـــه، والقادرة على التفوق عليه : عندها تصبح الخصائص الجغرافية للقارة العربية بمجموعها خصائص